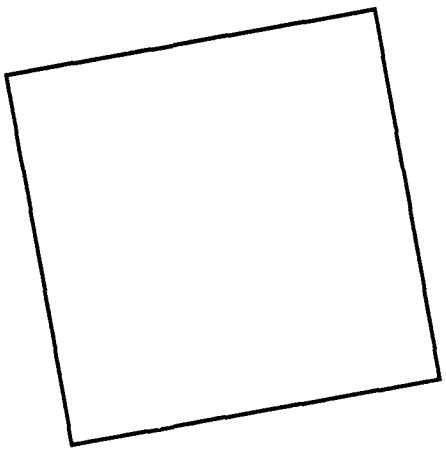

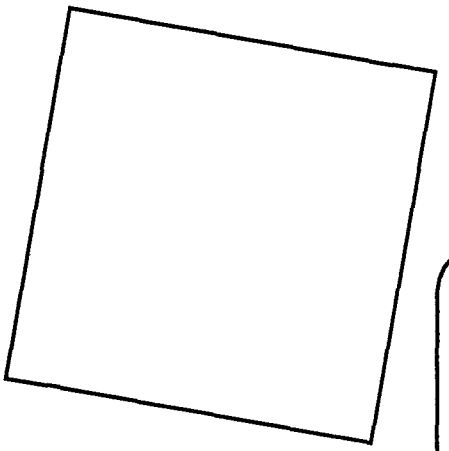

ثلاث رسائل من طه الحاجري

إلى

طه

حسين

تقديم:

نبيل فرج

هذه ثلاث رسائل خاصة، كتبها الدكتور طه الحاجري، في ظروف مختلفة، إلى الدكتور طه حسين، تنشرها **الآداب** عن أصولها الخطية التي احتفظ بها طه حسين بين أوراقه الشخصية، ثم احتفظت بها، من بعده، أسرتُه.

وليست هذه الرسائل هي الوحيدة التي كتبها طه الحاجري إلى طه حسين. ولكن ثمّة رسائل أخرى يومئ إليها في هذه الرسائل، بعث بها إلى طه حسين، ويبدو أنها فُقدت ولم يبقَ منها إلا ثلاث رسائل.

الرسالة الأولى تحمل تاريخ ٣١ مايو ١٩٥٢، حين كان طه حسين وزيراً للمعارف، ويعرض فيها طه الحاجري المعاناة التي يواجهها في نشر المقالات وطبع الكتب، تعليقاً على ما كتبه طه حسين في تلك الأيام، في جريدة **الأهرام** عن «محنة الأدب»، وتحدّث فيها بصراحة عن ركود الأدب في مصر، وندرة الكتب القيّمة، وعدم احتفال الصحف اليومية والأسبوعية بالأدب، وإهمال مصر للعقل والقلب والذوق.

والرسالة الثانية في ٤ أكتوبر ١٩٥٣ يعاتب فيها طه الحاجري طه حسين لفتور العلاقة بينهما؛ وكان طه حسين حسن الظن بتلميذه طه الحاجري، يحمل له الودّ الخالص. ويفصح الحاجري عن ألمه للحوائل التي تقف دون لقائه به.

والرسالة الثالثة كُتبت في ٣١ ديسمبر ١٩٦٣، أي بعد أكثر من عشر سنين على الرسالتين السابقتين، وفيها يذكر طه الحاجري مكانةَ طه حسين في نفسه، ودَيْنَه العظيم له، راجياً منه أن يمدّ يد العون لأحد العاملين في مجمع اللغة العربية.

وتُعتبر هذه الرسائل وثائقَ أدبية تكشف جانباً من تاريخنا الثقافي في الخمسينات والستينات، وصلتْ فيه أوضاعُ النشر في مصر إلى حدّ أن يعاني أستاذٌ كبيرٌ من طراز طه الحاجري، كرّس حياته العلمية للدراسة الأدبية من أزمة النشر، سواء بالنسبة للمقالات أو الكتب!

كما تكشف هذه الرسائل عن مشاعر الحب والتقدير التي حملها تلاميذُ طه حسين له... وقد كُتبتْ بلغة أدبية رفيعة المستوى، بقلم باحث عاش حياته الفكرية ينقّي الحبَّ من التبن، متأثراً في أداء رسالته الجامعية بطه حسين، وبأسلوبه الأدبي الأخّاذ، وبإخلاصه للعلم والمعرفة.

وإذا جازت المقارنةُ بين التلميذ والأستاذ، مع حفظ الفروق الشاسعة بينهما في المنزلة والصيت والأثر العام، فإننا نجد أنفسنا إزاء شخصيتين متباينتين: طه الحاجري يرى التوازن بين القديم والجديد، بينما يتجاوز طه حسين هذا الأفق المحدود -أفق التوازن - بإيثار الجديد على كل قديم.

ومع هذا فإنّ مؤلفات طه الحاجري وتحقيقاته ثروةٌ في المكتبة العربيّة، زاخرةٌ، بالفوائد الجمّة، ومراجعُ معتمدة، لا يستغني عنها باحثٌ في تخصّصها. وأهمها في مجال التأليف:

الجاحظ حياته وآثاره، بشار بن برد، قصر الرشيد، ابن حزم صورة اندلسية، في تاريخ النقد والمذاهب الأدبية. وأما في مجال التحقيق، فأهمها: كتاب **البخلاء** للجاحظ، **مجموع رسائل الجاحظ**، والجزء السادس من كتاب **مختار الأغاني** لابن منظور.

وتتضمن مجلات كلية الآداب بجامعة الإسكندرية، والجامعة الليبية، ومجمع اللغة العربية، والمجمع العلمي العراقي، ومعهد المخطوطات العربية، وكذلك مجلات **الكاتب المصري**، **والعربي**، **والمجلة**، **وأمواج**، **والثقافة** وغيرها، عشراتِ الأبحاث المتناثرة للدكتور طه الحاجري، يتناول فيها شخصيات وكتباً واتّجاهات يغشاها الإبهام والغموض، في التراث القومي والحياة العربية، يتتبع جزئياتها وإلماماتها وأخبارها من مصادرها الأولى البعيدة المنال، كأنه يتتبع الأدبَ الحديث والحياةَ المعاصرة.

وإلى جانب هذا الإنتاج شارك الدكتور طه الحاجري في الخمسينات في إنشاء الجامعة الليبية، منتَدَباً من كلية الآداب في جامعة الإسكندرية، وعمل سنوات أستاذاً بجامعة بغداد، وزائراً بجامعة القاهرة فرع الخرطوم، وكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعة التونسية.

وبعدَ إحالته على المعاش في ١٩٦٨ قام طه الحاجري بتنظيم مركز تحقيق التراث بدار الكتب المصرية، في ضوء معارفه الغزيرة بالمخطوطات والمطبوعات في البلدان العربية، ووضع له خططاً لنشر الآثار الأدبية بصورة علمية دقيقة، داعياً إلى إعداد فهرس واحد للمخطوطات العربية في كل أنحاء العالم، يكون أساساً لبلوغ هذه الغاية. وهذه هي رسائل طه الحاجري إلى طه حسين.

سيدي الدكتور

أثار مقال معاليكم الرائع عن محنة الأدب شجوني وشجونَ الذين يعانون في أنفسهم الشعورَ بهذه المحنة، ولا سيّما من يصطنعون الأدب أو الدراسة الأدبية. وتكاد تهمةُ التقصير في ذات الأدب والحياة الأدبية وكرامة مصر العلمية تمسك بمخنقهم وتأخذ بتلابيبهم، وهم يحسّون في كل لحظة هذه التهمة المطلّة عليهم، المحوّمة فوقهم، وما يكادون يملكون سبيلاً إلى دفعها عنهم... وإن كانوا ما يزالون يجدّون ويكدّون، ويعملون وينتجون، ولكنه إنتاج لا يكاد يتجاوز مكاتبهم وقاعات دراساتهم، لأنّ الأبواب قد أُوصدت دونه، ولأن سبيله إلى دُور النشر قد امتلأت بالعقبات التي أشرتُم معاليكم إليها. وإذ كان أمرُ النشر أمراً تحكمه الاعتبارات التجارية، فلا بد للعمل العلمي من أن يظفر بما يجعله سلعةً رائجةً في نظر الناشر، من اسم صاحبه وصفته، ومن الملاءمة بين هذا العمل وذوق الجمهور المستهلك، إلى غير ذلك من الاعتبارات... وإلاّ فقد وجب أن يظل هذا العمل حبيساً لا يرى النور، دفيناً لا يستشعر الحياة. وقد يستطيع الأديب أو الدارس أن يظل على هذا فترة من الزمن، لأنه بهذا العمل يحقق شخصيته، ولكنه لن يلبث حتى يرى أجنحته وقد هيضت فلا يملك بعدُ إلا أن يخلد إلى الأرض، وقد غلبته السآمة على أمره، وما أتعسه مصيراً نعوذ بالله منه!

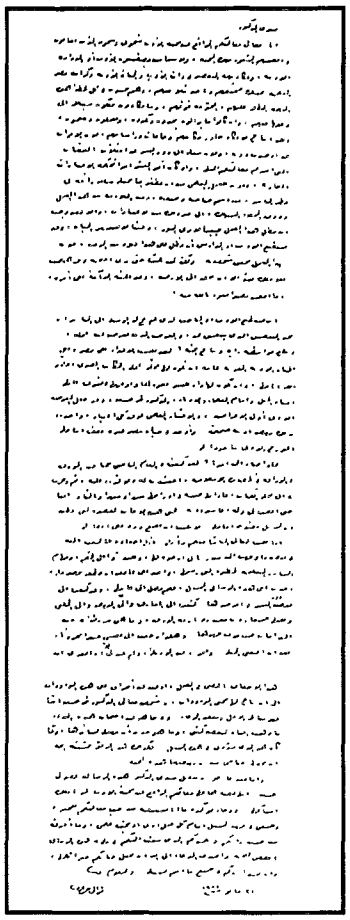

أين يستطيع الأديبُ أو الباحث الذي لم تتح له الوسيلةُ إلى الناشر أن يجد المتنفس الذي يتنفس فيه، والمعرضَ الذي يعرض فيه عمله، ويُبلّغ بواسطته رأيه ونتائج بحثه؟ لقد نفت الأقدار على مصر وعلى الحياة الأدبية العربية عامة أن يكون لها مجلّة كمجلة **الكاتب المصري**، نضّر الله أيامها، وأن تكون لها دارٌ للنشر يقودها ويوجهها ويشرف عليها أستاذُ الجيل وإمامُ العلماء والأدباء، الدكتور طه حسين؛ وقد جعل الغرض الأدبي أولَ الأغراض، والاعتبارَ العلمي فوق كل اعتبار، وأحدث بذلك نهضةً أدبية صحيحة، وأوجد في حياة مصر فترةً يقف أمامها المُوزّع الأدبي مأخوذاً بها.

فماذا صار إليه أمرنا؟ لقد كتبتُ في العام الماضي بحثاً عن الورق والوراقة في الحضارة الإسلامية، احتشدتُ له وتوفرتُ عليه، ثم وجّهتُ به إلى مجلة **الكاتب**، فإذا بها تحبسه في

ادراجها شهراً وشهراً وثالثاً وربعاً، حتى انفتُ لي وله، فاستردتُه. فحتى هذه الأبحاث القصيرة التي يُظَنُّ أن السبيل مفتوحة أمامها، لا تلبث أن تُقمع وتردّ على أعقابها.

أما الكتب فمعالي الباشا يعلم شأنها. إنها أحفاده كما كتبت إليه في بعض ما وجهت إليه من رسائل أرجوه لها. ولكنّ شواغل الحكم، ومهام السياسة التعليمية الخطيرة التي رسمها وأخذ على عاتقه أن يظفر بمصر بها، أخذتْ على هذه الرسائل السبيلَ، فلم تصل إلى غايتها. وقد كتبتُ إلى بعض دور النشر في أمر نشرها: كتبتُ إلى «المعارف» وإلى «النهضة» وإلى «الحلبي»، ولكنها جميعاً ردّت متذرّعة بأزمة الورق، وبما هي مرتبطة به من التزامات تستغرق جهدَها. وهكذا رجعتُ إلى نفسي حسيراً محزوناً، بعد أن أعيتني الحيلة، وعجزتُ عن الوسيلة. ولم يكنْ لي إلاّ أن أتعزى عن هذا الإخفاق بالمضيّ في العمل، أدفنُ فيه أحزاني على هذه الموءودات إلى أن يُتاحَ لها محبّي الموءودات، في شخص معالي الدكتور طه حسين باشا؛ فهو مناطُ الأمل ومعقدُ الرجاء، وفي جاهه عند أصحاب هذه الدور ما وهبَ الحياةَ لبعض كتبي، وما هو جديرٌ أن يهبها لسائرها. وكما كان هو الذي سدّدني في هذه السبيل، فكذلك هو المرجوُّ بمشيئة الله أن يحفظ جناحيّ من أن تهيضهما هذه المحنة.

وأما بعد فأرجو أن يتقبّل سيدي الدكتور هذه الرسالة بقبول حسن. إنّها نفثة هاجها مقالُكم الرائعُ عن محنة الأدب لم أملك إمساكها، ورجاءٌ يؤكده ما أنا مستيْقِنُه من حبّ معاليكم للخير، وللسعي في تمهيد السبيل أمام كل عمل أدبي أو بحث علمي، وما أعرفه من حسن رأيكم في تلميذكم الذي يبعث إليكم في نهاية هذه الرسالة بأخلص التحية وأصدق الدعاء إلى الله أن يجعل حياتكم خيراً كلّها، وأن يشدّ أزركم في جميع ما أنتم بسبيله، والسلام.

طه الحاجري
٣١ مايو سنة ١٩٥٢

سيدي الدكتور

منذ أيام أرسلتُ إلى أستاذي الكبير بحثيْن أُتيحَ لهما أن يظهرا، وكنت أود لو تقدمتُ بنفسي بهما، ولكنّ ظروفَ حياتي التي فرضها عليّ مرضُ زوجتي هذا العام حالَتْ بيني وبين تحقيق هذه الرغبة، فاكتفيتُ بإرسالها، على أن أكتب إلى سيدي الدكتور كتاباً يلحق بها. ومنذ ذلك الوقت وأنا أهمّ بالكتابة ثم أعجز عنها وما أحسب أن أمراً كهذا قُدِّرَ لي من قبل! ولكنّها هذه السنوات الثلاث التي حيل فيها بيني وبين لقائكم، وحيل فيها - فيما بدا لي - بين كتبي وقلبكم. وإنما هي مراتٌ ثلاث ظفرتُ فيها بلقاء خاطف، وأنا ما أزال أذكرها، وأذكر كيف كانت حسرتي قبلها أشدّ من غبطتي بها. كانت أخراها في «الأتليه» عقب محاضرة للأستاذ مؤنس سعيتُ إليها رغبةً في اللقاء الذي منّيْتُ به نفسي، واحتفلَ به خيالي. ولكني عدتُ منه كسيراً حسيراً أحسُّ الألَمَ يعصر قلبي عصراً، والحيرةَ تنتاش نفسي انتياشاً. أكذلك يؤول أمري مع أستاذي؟ أيُّ عينٍ أصابت الودّ الذي كان يُضمره لي، والحفاوةَ التي كان يلقاني بها؟ وهل أنسى آخرَ مجلس جلسته إليه في الإسكندرية في الثلاثين من شهر نوفمبر سنة ١٩٤٩، وكان مجلساً حافلاً بما جعل نفسي تتهلّل وتهتزّ وتمتلئ غبطةً وبِشْراً؟ أوَ أنسى ما طلبه مني في هذا المجلس، مبالغةً منه في الحفاوة بي، أن أزوره إذا أنا كنتُ في القاهرة، وهو يعلم أني أعتقد هذه الزيارة فرضاً عليّ كلما كنتُ هناك؟ ثم... لا تلبث شواغلُ الحكم وشؤونُ السياسة ومراسمُ السلطان حتى تقوم دون الدكتور حائلاً قويّاً منيعاً: فكلّما حاولتُ الزيارةَ دُفعتُ عنها؛ وكلّما لجأتُ إلى التليفون قيل لي أخطأتَ الرقم؛ وكلما كتبتُ إليه لم تبلغْ كتبي حيث كنتُ أرجو لها؛ فإذا قُدِّرَ لي أن ألقاه أخذتني أماراتُ الصدود المرتسمة على وجهه، ومعاني الفتور البادية في لفظه. وكذلك أخذتْ هذه الصورُ وعشراتٌ مثلها تكرُّ أمامي مترادفةً، وأنا أهمُّ بالكتابة، فأعجز عن إنفاذها، ويملأ قلبي من الحزن والوجيعة فوق ما يعانيه من القلق والاضطراب.

وبالأمس أتيح لي أن أقرأ هذه الفصول الرائعة التي ردّتني إلى تلك الأيام الجميلة إذ كانت تُنشر في البلاغ وغيره من الصحف. ويا لذكريات تلك الأيام المعمورة بالنشوة! وما أجلّها متعةً روحيةً طال عهدي بمثلها. هذه الصور الرائعة التي تُعرض فيها النفس البشرية عرضاً قويّاً دقيقاً متغلغلاً، تكشف عن أصغر الملامح وأدقّ الخَطَرات، ثم صورة ذلك المصوِّر العظيم الذي يملك هذه القدرةَ على إبراز الخفيّات وتتبّع الخلجات، في أسلوب يجمع الحلاوةَ والجزالة، ويلائمُ أروعَ ملائمةٍ بين طريقة الجاحظ وروح طه حسين، وصورة ذلك الإنسان الكبير الذي يرتفع عن الأحداث ويعلو فوق الترهّات. لقد ردّني هذا الكتابُ إلى الوراء سنواتٍ وأحاطني بمفاتن تلك الأيام وبعثَ فيّ تلك النشوة، وأثار في أعطافي تلك الهزّةَ. وإذا بي أكتبُ هذا الكتاب إليكم، وأراني منساقاً في الكتابة، وأراني أعرضُ فيه بين يديكم جوانبَ من نفسي كنت أتحرّج أشدّ التحرج أن أعرضها. وإذا بي أنسى ما كنتُ أريد أولَ الأمر أن أجعله موضوعَ هذا الكتاب من التحدث عن بحثيّ وملابساتهما والتماس اللّذة في مثل هذا الحديث إلى أستاذي الكبير.

وبعد فما أدري كيف يلقاني الدكتور في هذا الكتاب. ولكني أدعو الله جلّ شأنُه أن يشرح له صدرَكم، كما أدعوه أن يوفقني لما أستديم به حبكم، وأستردّ به سابقَ عهدي معكم.

كما أرجو يا سيدي الدكتور أن تتقبلوا خالص التحية من تلميذكم المخلص

طه الحاجري
٤ أكتوبر سنة ١٩٥٣

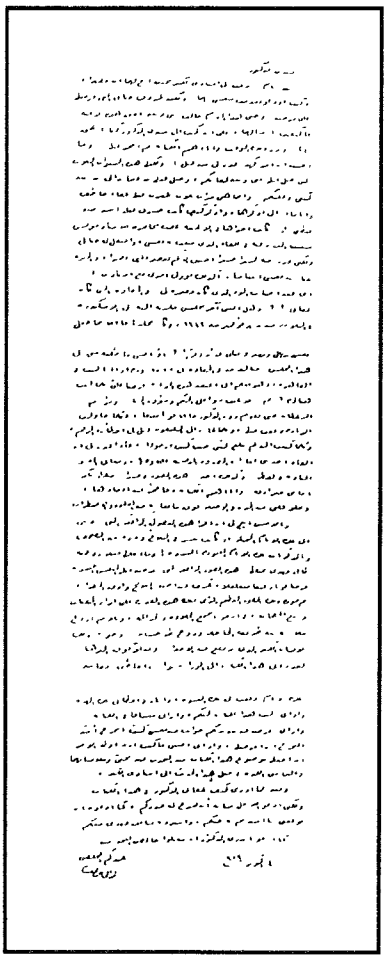

سيدي الدكتور

في مطلع هذا العام الجديد، وفي مشارف شهر رمضان المبارك، أدعو اللّه عزّ وجلّ شأنه وعظمت منّتُه، من قلب خاضع خاشع، يُضمر لكم أخلصَ الحب ويشتمل على أصدق الولاء والإجلال، أن يبارك فيكم، ويحوطكم برعايته، ويسبغ عليكم نِعَمَه ظاهرةً وباطنةً، وأن يشدَّ أزركم ويبقيكم في صحة وعافية لأبنائكم الذين يدينون لكم بأجلّ ما يدين به تلميذٌ لأستاذه: فهو يراه في كل خطرة فكر، وفي كل وجهة درس.

وأنا منذ أول هذا العام أحيا معكم يا سيّدي حياةً علميةً متّصلة، إذ كنت اخترتُ أبا العلاء موضوعَ درسي لطلبة الدراسات العليا، فقد أجلسني أبو العلاء منكم ذلك المجلسَ الذي أعتزّ به، وما زلتم يا سيّدي ملءَ خاطري في كل نصّ أقرأه، وفي كل صورة تعرض لي. وهأنذا، وأنا أكتب إليكم هذا، أرى نفسي تهفو بها أشواقها إليكم، وقد غمرها الحنينُ وتواترتْ عليها الذكريات، فأفاضت عليها من المشاعر الكريمة ما لا سبيل إلى تصويره أو التعبير عنه. إنّها زادي الذي أتزوّد به كلما حَزَبَني ما يضيق به صدري من مُنْكَرات الأمور. فما زلتم يا سيدي مصدَر الخير لتلميذكم في أوّل أمره وسائره.

وبعد، فقد كان ينبغي لخطابي هذا أن يكون خالصاً لهذه التحية. ولكنّ في نفسي شيئاً ما يزال يتلجلج فيها منذ زمن، وسيدي الأستاذ هو المرجُو له، وصاحب الأمر فيه إنْ شاء الله. فكرهتُ أن أطويه عنه، ورجوتُ أن يأذن لي في مبادرته به.

إن من أبنائكم - يا سيدي الدكتور - المخلصين لكم، المرتبطين أوثق ارتباط بكم، صديقاً في مجمع اللغة العربية، هو الأستاذ عبد العليم الطحاوي وهو الذي أرجو أن يأذن لي سيدي الدكتور أن أذكّره به في هذه الأيام المباركة إنْ شاء الله، فلعلّ الله يجري على يديكم - كما كان شأنكم دائماً - ما يشرح صدره ويفرّج عنه. إنّه يعاني في هذه الأيام أزمةَ التفكير في مصيره ومصير أسرته الكبيرة، وقد اقترب موعدُ إحالته إلى المعاش، وأعباءُ الحياة ثقيلة، وتبعاتُه كثيرة. وأنا أعلم أن هذه الأزمة تحاصره منذ زمن. ولكنّ الذي أعلمه علمَ اليقين من حبكم للخير، وحرصكم على الأخذ بأيدي أبنائكم، يشجّعني على أن أتقدّم إليكم في شأنه، وما زال - والحمد لله - قادراً على العمل السديد، وله من الخبرة والتجربة والإخلاص ما أحسبه لا يغيب عن سيدي الدكتور. وكلنا - نحن إخوانَه - رجاءٌ في أن تَمُدُّوا إليه أيديكم المبسوطة بالخير دائماً، فتفرّجوا عنه وعنّا هذه الكربة، فرّج الله عنكم، وأجْزَل ثوابكم، وحفظكم وأبقاكم. وما زلتم يا سيدي موضعَ الرجاء ومناط الأمل.

وما زلتُ يا سيدي الدكتور تلميذكم الوفيّ المخلص

طه الحاجري

٣١ ديسمبر سنة ١٩٦٣